دلالات الخطاب الثقافي والحضاري
في الرواية النسائيّة السعوديّة
رِوَايَة "بنات الرّياض" لرجاء الصّانع أنموذجاً

*** ملخّص:**

في هذا المقال، نحاول رصد أهمّ تجلّيات الخطاب الثقافي والحضاري وطرق تشكّله، وذلك من خلال رواية (بنات الرّياض) للكاتبة السّعوديّة رجاء الصانع، وهي رواية رأت النّور ببيروت عام 2005 وأثارت ضجة كبيرة، بين مساند ومهاجم، عند صدورها. هدفنا الأساس في هذا البحث هو فهم أسباب صدى هذه الرّواية المدوّي وتفكيك آليّات صبغتها "الانتهازيّة"، أي تجاوبها وتوافقها مع روح العصر.

*** الكلمات المفاتيح:**

تحليل الخطاب – الشباب – الكمبيوتر – شرق وغرب – أمريكا، الرياض ولندن

إنّ تأثيث المكان، في بعض الروايات النسائية السعودية، مرتبط بالمتغيّرات والتطوّرات الاقتصادية والتعليمية والفكرية التي نشهد انعكاساتها داخل وخارج البلاد. وتعني الدلالة الحضارية الأبعاد المتعلّقة بالقضايا الحضارية التي تعكسها وتصوّرها رواية تيّار الوعي السعودية. فقد كانت الروائية السعودية واعيةً إلى حدّ كبير بما يدور في العالم من تحوّلات سريعة، وخطيرة في بعض الأحيان، الأمر الذي جعلها تحتك برؤى وأفكار وتصوّرات لم تكن موجودة سابقاً في عالمها السّردي. نستطيع أن ننظر إلى تشكيل المكان، وفق هذه الرهانات الحضارية، في عدّة روايات نسائية سعودية، نخصّ منها (بنات الرياض) لرجاء الصّانع.

أ- رواية شبابيّة

يَحْضُر الغرب بصفة لافتة في (بنات الرّياض). قبل القرار الذي اتّخذته المملكة عام 2005م والمتمثّل في إرسال طلبة سعوديين إلى الخارج على نطاق واسع. سافر أزواج من الخرّيجين الشبّان ميسوري الحال إلى الغرب، قصد مواصلة دراستهم. وكانت الولايات المتّحدة الأمريكيّة وجهتهم المفضّلة، مثلما هو الحال بالنّسبة إلى قمرة ورشاد اللّذان اختارا مدينة شيكاغو حيث أقاما في الطّابق الرّابع للبرج الشّهير المعروف باسم "البريزدنسيال". نلمس هذا الانجذاب إلى نمط الحياة الأنغلوسكسوني في العبارات الأنجليزيّة العديدة التي تتخلل الرّواية والتي تُضفي، مع اختلاطها باللّهجة العاميّة السّعوديّة وبالعربيّة الفصحى، طابعا لغويّا متنوّعا ومتلوّنا على هذه الحكاية لأربع عشيقات وهنّ سديم، وقمرة، ولميس، ومشاعل.

لم يعد الانحباس في لغة واحدة، وهي العربيّة، ممكنا من النّاحية الحضاريّة، بخاصّة أنّ بعض الشخصيّات لا تتقنها بما أنّ دراساتها كان للإنجليزيّة فيها نصيب الأسد. تعكس هذه المستويات اللّغويّة المختلفة حركة الشخصيّات النّسائيّة المستمرّة، بين ذهاب وإيّاب من موطنها الأصل، المملكة العربيّة السّعوديّة، إلى بلدان غربيّة، مثل بريطانيا وأمريكا أين تقيم، بغية الدّراسة، أو التّرويح على النفس، أو نسيان فشل عاطفي وَزوجي، غير قادرة على الاستقرار في مكان محدّد، وكأنّها في حالة عبور متواصل، متعطّشة إلى الحياة والحبّ، لها كلّ ما تريد في وسطها العائلي الثريّ واللّيبيرالي.

ب- الكمبيوتر والنّت

تَبْرُزُ الرّهانات الحضاريّة بوضوح، في هذه الرّواية، مع التغيّرات التي تُحْدِثُهَا في عادات النّاس وعقليّاتهم، عبر هذا الجهاز الذي يكْتَسِي، بين عشيّة وضحاها، دورا حيويّا ألا وهو الحاسوب. يَنْبَني السّرد على الإيميلات التي تُرْسل كلّ جمعة، يوم صلاة المسلمين الكبرى، على امتداد ستّ سنوات، تتخلّلها فترات انقطاع أثناء شهر رمضان المعظّم. في مستهلّ كلّ فصل من الفصول الخمسين التي تشتمل عليها هذه الرّواية، تذكر باعثة هذه الرّسائل التي تروي قصص صديقاتها الأربع، دون الإفصاح عن هويّتها، ردود الفعل المعادية في معظمها، التي تثيرها إيميلاتها، وكأنّ الرّوائيّة، وهي طبيبة، تخصّص فصلا تمثيليّا للكتابة وللتلقّي يُعرض حسب تلازم الأوّل وتزامنه مع العنصر الثّاني، قصد جسّ نبض الذهنية التي تسوس مجتمعها.

أضحى "النّات" والكمبيوتر قطب كلّ الشّهوات. تقول الرّاوية:

«لقد أصبحت هذه القصّة حياتي. أصبح يوم الجمعة أكثر قداسة من ذي قبل، وأصبح لجهاز الكمبيوتر موقع أساسي في غرفتي بعد أن كان ينتقل من غرفة إلى أخرى من دون أن أكترث، وصرت أضحك كلّما أغاظتني زميلة أو أستاذة من أساتذة الجامعة اللّواتي يحرقن الدمّ ! كلّ هذا لا يساوي شيئا أمام ما أفعله. كلّ هؤلاء المتعجرفات

يلتصقن بشاشة الكمبيوتر كل جمعة ليقرأن ما أكتب، فلأدعهنّ لتفاهتهن، ويكفيني ما أحسّ به في داخلي من فرح واعتزاز !»[1].

لكلّ مبادرة بداية ولكلّ مجاسرة سَبْقٌ فعليّ. إنّ رمز هذه الجرأة هو مرّة أخرى أمريكي، مارتن لوثركنغ، الوجه القيادي البارز في الدّفاع عن السّود بأمريكا:

«من كان يتخيّل أنّ مارتن لوثركنغ القسّ المسالم سوف يحرّر السّود في أمريكا من قوانين التّمييز العنصري ويبدأ حركة المساواة بين البيض والملوّنين باحتجاج بسيط منه وأفراد كنيسته على الفصل بين البيض والسّود في مقاعد الحافلات في مدينته؟»[2].

ما يُعَادُ النّظر فيه هنا هو مسألة الهويّة الوطنيّة برمّتها. لم تعد الرّاوية تعتبر نفسها سعوديّة فقط وإنّما أيضا وأساسا كائنا مقموعا على غرار السّود الأمريكيّين. بعد نجاح روايتها اللاّفت وترجمتها إلى لغات أجنبيّة عدّة، غالبا ما تحبّذ الرّوائيّة ترديد هذا الكلام:

«إنّي سعوديّة جسدا وروحا. لكن أعتبر نفسي، قبل كلّ شيء، مواطنة ضمن مواطني هذا العالم، إذ أرى حالي في كلّ واحدة من النّساء، أو واحد من الرّجال، المقهورين والمهانين، إن كانوا أفارقة، آسيويّين أو حتّى أوروبّيّين»[3].

تستمدّ رواية (بنات الرّياض) عنوانها من أغنية للمطرب السّعودي عبد المجيد عبد الله تحمل نفس التّسمية. وهي رواية تتوافق مع موضة العصر السّائدة. ليس هذا النصّ أفضل ما أنتجته الرواية النسائية السّعوديّة، لكن علينا أن نقرّ بذكاء مؤلّفته، إن لم نقل مَكْرَها، في تماهيها مع انتظارات شريحة عريضة من الشّباب السّعوديّ وتطلّعاتها، وبخاصّة النّساء، شباب يحلم بعالم متنافذ على مباهج الحياة، متنوّع الثقافات، تعدُّديّ. إنّها تتحدّث طبعا عن طبقة شبابيّة مخمليّة تمتلك الوسائل التي تتماشى ورغباتها وشهواتها، لكن الشّباب الغنيّ، أو الشّباب المعوز على حدّ السّواء، رأى صورته كما هي، أو قذف بها، في هذه الرّواية التي تهبّ عليها نسمة من الحريّة. في هذا السّياق، يكتسي الدّعم الصّريح الذي قدّمه إلى هذه الرّواية المرحوم غازي القصيبي، الأديب والشّاعر والرّوائي السّعودي، بعدًا رمزيّا بالغا. هذا المتيّم بلغة شكسبير والمتزوّج من ألمانيّة هو كاتب عربيّ حداثيّ وعلمانيّ، عُرف بمناصرته لحريّة التّعبير، ومناهضته للرّقابة، ورفضه لكلّ أنواع الوصايات مهما كانت طبيعتها. على درب خطاه، وكما تعكسه أغلب تعاليق الرّاوية في مُفتتح كل إيميل، تعتبر رجاء الصّانع أنّ «الثورة»[4] يجب أن تقوم ضدّ «الأفكار البشعة والعادات المريضة»[5].

ج- في سياق العصر

ما يُحْسَبُ للكاتبة هو أنّها راهنت ليس على شخصيّات نسائيّة مثقّفة تمتلك رؤية نظريّة وعلى علم مسبق بتقلّبات الوجود واضطراباته، وإنّما على شخصيّات بريئة وتلقائيّة تعيش حياتها بصفة فطريّة، متكيّفة مع سذاجتها ودهشتها أثناء اكتشافها للعالم الغربي. فهي تروي، مثلا، التوتّر الحادّ الذي انتاب شخصيّة قمرة في مصعد برج شيكاغو الشّاهق، أو ذعرها أمام المتسوّلين السّكارى المُكدّسين في شوارع هذه المدينة الأمريكيّة، أو

---

1 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.200.

2 نفس المصدر، ص.113.

3 مقابلة أجرتها رجاء الصّانع مع الصّحيفة اللّندنيّة اليوميّة "الحياة" بتاريخ 13 ديسمبر 2012، ص.19، وذلك بعد ترجمة روايتها إلى الفرنسيّة.

4 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.113.

5 نفس المصدر، ص.113.

أمام الحارس الأسود الضّخم للعمارة الباذخة حيث تسكن[6]. كما تلقُطُ الشّعور بالصّفاء والحريّة الذي يختَلجُ مشاعل على الطّريق العام بمدينة سان فرانسيسكو حيث تنتفي الآراء المُسْبَقة التي لها صلة بالجنسيّة والطبقيّة والعرقيّة[7]. «لديّ حلم»، تلك هي الجملة الشّهيرة التي نطق بها مارتن لوثركنغ في مستهلّ إحدى خطاباته قبيل أيّام من عمليّة اغتياله. كلّ واحدة من الأربع نساء لها حلمها الخاصّ بها. فالصّحفيّة (مشاعل) تتمنّى أن ترى صورتها، في يوم ما، على أغلفة مجلّة صحبة الممثّلين الأمريكيّين (جوني ديب) أو (براد بيت)، وأن يقع أيضا دعوتها لحضور حفلات توزيع جوائز الأوسكار السّينمائيّة والتّتويجات ذائعة الصّيت في مجال الموسيقى[8].

يستوجب كلّ تغيير جذريّ سحب البساط أمام طغيان المقدّسات. كلّ ثورة، في جوهرها ومغزاها، هي تقويض للتقاليد. لا تتعلّق المسألة بالتنكّر لإرث الدّين الإسلامي وللحكم النيّرة التي تضيء تعاليمه. تقول الرّاوية أنّ «الآيات القرآنيّة والأحدايث والاقتباسات الدّينيّة تلهمها»[9]، كما نتبيّن ذلك في مطلع مقاطع كثيرة من الرّواية حيث تَتَوكّد ثقافتها الدّينيّة. لكنّها تقول أيضا أنّ الأغاني تُنْعشها والموسيقى تُقَوّيها وأنّ نغمات آلة البيانو الحزينة خصوصا لها وقع كبير على نفسيّتها[10]. ليس هناك أيّ تعارض بين هذا الولع بالرّاحة الدّاخليّة التي تَمْنَحُها التّقوى وبين التّواشج مع متعة الحواس التي يُحييها الفنّ. فالإنسان، في نظر صاحبة هذه الرّسائل الإلكترونيّة، متعدّد وبالتّالي ليس من المعقول أن يُحْبس في قالب واحد.

إذا أردنا تغيير الوضع السّائد، لا بدّ من إزالة الهالة التي تحيط ببعض المعتقدات التي نَخَالُها فوق أيّ انتقاد وتشكيك، بما فيها المعتقد المتعلّق بالرّواية كجنس أدبيّ. تُزَحْزِحُ رجاء الصّانع، حسب طريقتها، الصَّرْح الذي وُضِعَت عليه الرّواية، إذ أنّها تبيّن أنّ الكمبيوتر ووسائل التّواصل الإلكتروني تتيح للكتابة فرصا لا تُحْصَى ولا تعدّ. فمن الممكن تأليف رواية انطلاقا من أمور بسيطة، من لا شيء، من مقتطفات حياتيّة وصدف، شريطة توفّر الصّدق والالتصاق بالواقع المعيش، كما تشير إليه ملاحظة الرّوائيّة الاستهلالية: «أيّ تشابه بين أبطال الرّواية وأحداثها والواقع هو تشابه مقصود»[11]. إنّه من الضروري إذا التكيّف مع روح العصر والاستفادة من ذلك.

إنّ خلخلة التّقاليد الثّابتة لا يمكنها أن تتمّ في أماكن مغلقة ولا في حلقات ضيّقة، وإنّما تَتِمُّ بالسّعي إلى التّواصل مع أكبر جمهور عريض ممكن. في هذا الغرض، تتميّز الكتابة الإلكترونيّة بمتابعة واسعة النّطاق وبنجاعة شبكاتها التّواصُليّة. فَدَمَقْرَطَةُ الكتابة تعني أن نَحْرُص على مفعولها وأن نُؤمّن لها وسائط أخرى أكثر انتشارا إعلاميّا. نحن بحضرة شباب منجذب إلى الصّور ومستهلك للأفلام والمسلسلات التّلفزيونيّة. وَبالرّجوع إلى الأكاديمي والمفكّر السّعودي عبد الله الغذامي الذي يقول أنّ «الأدب بورجوازي والصّورة ديمقراطيّة»[12]، تتمنّى الرّاوية أن يقع، في يوم من الأيّام، اقتباس حكايتها إلى الشّاشة الصّغيرة، رغم أنّها لا تتوانى في الاستهزاء من المسلسلات التّلفزيونيّة الرّمضانيّة لبلدان الخليج ومن عناوينها[13].

أمّا فيما يخصّ الانعكاسات الدّاخليّة والنفسيّة للمسألة الحضاريّة في علاقاتها بالمكان الغربي، فإنّها تظهر عبر تجارب كلّ واحدة من النّساء الأربع. لنأخذ مثال شخصيّة سديم.

---

6 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.34.
7 نفس المصدر، ص.155.
8 نفس المصدر، ص.250.
9 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.158.
10 نفس المصدر، ص.3.
11 نفس المصدر، ص.218.
12 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.218.
13 نفس المصدر، ص.319.

د- الغبار والضباب

تغادر (سديم) التي تنحدر من وسط ميسور، العاصمة السّعودية، قاصدة مدينة لندن، هروبا من المشاكل الاجتماعية التي تلاحقها، وبخاصّة بعد خيانة وليد لها. تتعرّف هناك على رجل عربيّ آخر يُدعى (فراس)، في سنّ النّضج، يشتغل في السّلك الديبلوماسي، وقعت في حبّه.

على غرار الكثير من الرّجال، في الرّواية النّسائيّة السّعوديّة، الذين يتفاخرون بثقافة عامّة شاسعة، يحدّث فراس سديم، مطنبا في التّفاصيل، عن لوحات رمبرانت وكدينسكي وعن إعجابه الكبير بموتزارت، واعدا إيّاها بأن يسمعها «ملكة اللّيل» من أوبرا «النّاي السّحري» للموسيقار النّمساوي[14]. لكن اللّوحة التي يرسمها لها باهتة وعلامات المعزوفة الموسيقيّة التي يؤدّيها على مسامعها ناشزة. ما هو غريب في فراس، هو أنّه بقي متشبّثا بالدّين وبالتّقاليد، رغم إقاماته المتعدّدة بالخارج. هو أيضا يتركها ويخونها. في استعادتها، من خلاله، لخيبتها السابقة في الرياض، تستنتج أنّه ليس للمكان الحضاري أيّ دور في تحديد عقلية الرجل وطبيعته.

يتشكّل المكان داخلياً، عبر نفسية الشخصية البطل، التي تسترجعه بعد انتقالها إلى لندن، كنوع من رسمها للمكان البديل الذي تجعل منه مهربا، باحثة عن حضارة أخرى، تُسافر سديم من مدينة الرّياض، «عاصمة الغبار» إلى مدينة لندن، «عاصمة الضّباب»[15]. تقول الرّاوية:

«لم تكن لندن جديدة عليها فقد اعتادت قضاء الشّهر الأخير من كلّ صيف فيها، لكن لندن هذه المرّة كانت مختلفة. هذه المرّة كانت مصحّة كبيرة قررت سديم الّجوء إليها لتتجاوز العلل النفسيّة التي تكالبت عليها بعد تجربتها مع وليد»[16].

مدينة لندن التي كانت تسحرها بأمطارها الصّيفيّة، بدت لها، منذ وصولها، عاصمة الوجع، غائمة مثل مزاجها وحالتها الذّهنيّة. تُصاب بصدمة الخطاب السلطوي الذي يفرضه الرجل على المرأة، أينما ذهبت، وأينما كانت، راسما قيوده على تحرّكاتها. فصورة المكان العربي تطاردها حتى وهي في الغرب، ملغيةً بذلك العيش في مكان يتواجد فيه أبناء مجتمعها، حتّى ولو كان في بلد متحضّر. لهذا فإنّ حضارة المكان الغربي لا تستطيع أن تغيّرها بسهولة مكونات الأشخاص القادمين إليها، وهذا شعور أحسّته سديم وأعلنته، منذ بداية رغبتها في الرحيل من مكانها الذي تعرّضت فيه لصدمة عاطفية حادّة إلى مكان آخر تتعرّض فيه، وللمرّة الثانية، لنفس المصير. تُصبح الدّلالة الحضارية، في التقاطع بين المكانين، مُتَمحورة حول خداع الرجل، وبالتالي خداع هذه الحضارة وانعكاساتها السلبية على المكان، في نظر هذه الشخصية.

خاب أمل سديم واجتاحها الارتياب حتّى أنّها أصبحت تشكّك في جدوى نظريّات الفكر الغربي الكبرى، مثل علم النّفس الفرويدي الذي تراه عاجزا عن مدّها بجواب مقنع عن الأسباب التي دفعت بوليد على صرف النّظر عنها. بالنّسبة إليها، أضحت كتب راسخة، مثل «مدخل إلى التّحليل النّفسي»، و«الطوطم والحرام»، و«الحياة الجنسيّة»، و«ثلاثة مباحث في نظريّة الجنس»، كتب فضفاضة وعديمة الفائدة[17]. على خلاف ذلك، تكتشف

---

14 نفس المصدر، ص.125.

15 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.73.

16 نفس المصدر، ص.73.

17 رجاء الصّانع. بنات الرّياض، ص.80.

حقيقة العلاقات الإنسانيّة وسلوك البشر لدى «أمّ نوير»، تلك المرأة المُطَلَّقَة التي تُعَاشِرُها باستمرار والتي تصنّف لها أنماط الرّجال والنّساء في منطقة الخليج[18].

إنّ أغلب الشّخصيّات النّسائيّة تأتي إلى المعرفة، حسب طريقتها الخاصّة، وكلّها أمل في أن تجد حلاّ لمشاكلها النّفسيّة. تُطَالَعُ كتب التّحليل النّفسيّ، حسب موضة العصر، وفي مرحلة معيّنة من حياة فتاة، أو زوجة شابّة، لكنْ بتقدّم السنّ وجرّاء محن الحياة يتّضح أنّ هذه الكتب ما هي، في النّهاية، سوى «طنين مفاهيم جوفاء»[19]. هذا ما تشعر به سديم حيال مؤلّفات فرويد.

هذه القطيعة مع الثّقافة الغربيّة تُذكّرنا بقطيعة مُماثلة، أكثر تجذّراً، في رواية (الفردوس اليباب) لليلى الجهنّي. في مشهد لافت، تقوم صبا، شخصيّة الرّواية الرّئيسيّة، وهي في قمّة الغضب والإحباط، بحرق كلّ كتب الأدب الإنكليزي التي كانت تستمتع كثيرا بقراءتها. ففي نظرها، هذه الثّقافة الأجنبيّة هي التي سمّمت فكرها وقادتها إلى الانحراف وارتكاب الخطيئة، ثقافة جعلت من الحبّ مثالا ساميا يجب أن نعيشه بلا أنانية ولا حسابات. لكنّ صبا تعي الهوّة الكبيرة بين مثالية عالم التخييل وبين قوانين المجتمع المجحفة. ما هو مؤثّر ومثير في الفعل الذي تقوم به أنّها تُتابع، متابعة دقيقة، عذاب الصّفحات والورق في النيران، بنوع من الغبطة المتشفّية، تقول:

«جَمَعْتُها هذا المساء ثمّ أسلمتها النّار في برميل كان في الشّرفة. كنت ألقيتها كتابا كتابا ورائحة الورق المحروق تملأ رئتي، والأسماء والأمكنة والسّطور كانت تتلظّى في الجحيم وربّما كانت تلعنني، أجل تلعنني مثلما سيلعنني النّاس غدًا»[20].

تجيب طقطقة النّار والتواءات الورق دقّات قلب (صبا) وارتعاد كامل جسمها. ففي واقع الأمر، ما كان يتحطّم ويتطاير دخانا، من خلال هذا الاحتراق، هو ذاتها بأكملها.

لن تَحْرُقَ سديم هذه الكتب، مثلما فعلت صبا في رواية (الفردوس اليباب) بكتب الأدب الأجليزي، لكنّها تنقلب عليها، يحدوها اقتناع جديد في كون المعرفة الحقيقية تكمن في مَخْبَرِ الحياة وتجاربها.

---

18 نفس المصدر، ص.80-85.

19 نفس المصدر، ص.80.

20 الجهنّي، مرجع سابق، ص.7.

المصادر والمراجع

- الصانع، رجاء. بنات الرياض. بيروت: دار الساقي 2005م.
- مقابلة أجرتها رجاء الصّانع مع الصّحيفة اللّندنيّة اليوميّة "الحياة" بتاريخ 13 ديسمبر 2012، ص.19، وذلك بعد ترجمة روايتها إلى الفرنسيّة.
- فوكو، ميشيل. حفريات المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعدالعالي، الدار البيضاء، دار توبقال، 1988م.

Yasser A. Al Tamimi, PhD

Associate Professor of linguistics

Yasser A. Al Tamimi, Associate Professor of linguistics, and Chair of Department of Humanities and Social Sciences at Alfaisal University in Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia, received his PhD in Linguistics in 2002 from the University of Reading, United Kingdom. Dr. Al Tamimi taught a number of language and linguistic courses, including phonetics and phonology, contrastive linguistics, morphology, syntax, semantics, sociolinguistics, psycholinguistics, translation, in addition to communication skills in a number of universities in Jordan and Saudi Arabia.

Al Tamimi assumed a number of academic responsibilities at the Hashemite University, including Head of Department of English Language and Literature (2003-2006), Director of Program for Literature and Cultural Studies (2003-2006) , and founder and Director of the university Language Center (2005- 2008). He was also elected Secretary and Publicity Officer for the Association of Professors of English Language, Literature and Translation at Arab Universities (APETAU) 2003-2006.

In different domains of linguistics, Al Tamimi has published original research work in outstanding international Journals, and participated in a number of national, regional and international conferences and seminars on different language and linguistic themes.